

الرسالة القبرصية

شيخ الاسلام ابن تيمية

٧٢٨ — ٦٦١

بتقديم وتحقيق

علي السيد المدني

عفا الله عنه

١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م

مكتبة المدني ومطبعتها

بجدة - سوق الندى - ٢٢٦٢

مطبعة الاستاذ

٦٨ طبع العاشر - الطبع ١٠٥٨٦٨٨٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

[سبحان ربك ربّ العزّة عما يصفون .

وسلام على المرسلين .

والحمد لله ربّ العالمين .

— ١ —

هذه هي المرة الثانية التي نخرج فيها للناس ، هذه الوثيقة الإسلامية الهامة ...

وهي (وثيقة) لها قيمتها ... وينبغي أن يقف عليها الدعاة دارسين متأملين ...

وأول المعاني التي تقتبس من هذه الرسالة : أن الإسلام لا يعرف (الكهانة) .. فالداعية المسلم ليس رهبين (صومعة) ولا حبيبس

(دير) يقضى فيه أيامه ولياليه ، بحجة أنه يريد أن يحرر نفسه من
ذلّ المعصية

ولا يعرف الإسلام معصية أعظم إنمّا وجرمًا من هذه المعصية ،
معصية اجتناب المجتمع ، وتركه وما يدين ، دون بذل أية محاولة
لإنقاذه من سقطته وكبوته وزلته !! ...

ما قيمة أن يعتق الإنسان نفسه ، والناس من حوله عبيد أرقاء ؟
ما قيمة أن يطهر الإنسان نفسه ، والمجتمع كله غارق حتى أذقانه
في الوحل والدّنس ؟

ثم ... هل يمكننا أن نسمّي إنسانًا لجأ إلى (دير) واستلقى في
أحضان (جبل) أو (صحراء) حرّاً ... أو طاهرّاً ؟

إن الفضيلة لا تظهر أصالتها عندما تهرب وتتروى ، ولكن
عندما تواجه الرذيلة ، وتنتصر عليها ، بل وتؤثر فيها !!

وكذلك كان «ابن تيمية» ...

وكذلك كان سائر علماء المسلمين وفقهائهم ... !

و «الجوامع» الإسلامية شيء

و «الصوامع» اللا إسلامية شيء آخر ... !

الجوامع ... مجتمعات مفتوحة للعمل ، والتربية ، والجهاد ،
والسياسة ، والحضارة ، والعلاقات ... !

والصوامع ... كهوف قامت بعيداً عن الناس ، والشمس ،
والصراع ، والتجربة ، والإنتاج ... !

وكذلك يكون الفرق - دائماً - بين الجامع والصومعة ... بين
« علماء » الجامع ، « ونزلاء » الصومعة ... !

فابن تيمية الذي يعيش في دمشق . . يؤرقه ويقلقه أنين أسارى
المسلمين الذي يتصاعد فوق أمواج البحر الأبيض في « قبرص » !

فيكتب رسالته هذه إلى ملك قبرص ... !

والمعنى الثانى الذى تقتبسه من هذه الرسالة ؛ ذكاء « ابن تيمية »
وقدرته على صياغة « العبارة الدبلوماسية » — على حدّ تعبير
المصر — ...

استمع إليه وهو يقول :

[والذى أختّم به الكتاب ؛ الوصية بالشيخ أبى العباس ، وبغيره
من الأسرى ، والمساعدة لهم ، والرفق بما عندهم من أهل القرآن ،
والامتناع من تغيير دين واحد منهم ، وسوف يرى الملك عاقبة ذلك
كله ، ونحن نجزى الملك على ذلك بأضعاف ما فى نفسه ١١] .

فقلوه : « ونحن نجزى الملك على ذلك بأضعاف ما فى نفسه »
عبارة قد وصلت إلى مستوى عالٍ من اللباقة السياسية ... ١

ولقد عرف الإسلام السياسة ...

وعرف رجال الإسلام السياسة .. وأثر عنهم منها الشيء الكثير ...

ولكنها ليست سياسة الف والدوران ، وإنما هي سياسة
الوضوح والائزان ، والقوة والإيمان ، والتضحية والفداء ...

سياسة ، العدل والسلام والرخاء للمسلمين ، ولغير المسلمين .

سياسة : هدفها : أن تكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين
كفروا هي السفلى ...

ولقد نجح الساسة المسلمون حينما حلوا ونزلوا ، وأينما ذهبوا
وارتحلوا ، في تعاليم الإنسان وإلزامه بشريعة الإحسان والتقوى ...

— ٥ —

والمعنى الثالث من معاني هذه الرسالة ...

هو أنها ألقت لنا الضوء على شخصية العالم المسلم ، وكيف ينبغي
أن تكون ؛ فهو رجل سيف وقلم ، رجل علم وعمل ... !

ليس رجل الملابس الفضفاضة المزركشة ... !

وليس رجل الفتاوى التي تعرض في سوق المزايدات ... !

وليس رجل التجارة الذي يعتبر العلم سلعة من السلع ، ووظيفة
من الوظائف ...

* * *

— ٦ —

هكذا كان علماؤنا ... قديما ... !

صانوا العلم ، فصانهم العلم ...

ثم خلف من بعدهم خلف ...

أهانوا العلم فهان ... !

وأضاعوه فضاع !

وأذلوه فذل !

وكانت فتنة ... وصفها الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله ^(١) :

« إن الله لا ينزع العلم انتزاعاً ، ولكن ينزعه بقبض العلماء

فيبقى ناس جهال ، يستفتون برأيهم فيضلون ويضلون » .

(١) من حديث عبد الله بن عمر - أخرجه البخارى ومسلم .

وفي رواية : « حتى إذا لم يبق عالم أخذ الناس رؤساء جهالا فسنلوا
خافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » .

وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سيكون
في آخر الزمان عباد جهال ، وقرءاء فسقة » أخرجه أبو نعيم .

قال القرطبي : وهو صحيح معنى ، لما ظهر في الوجود من ذلك !!!

قال مكحول : يأتي على الناس زمان يكون عالمهم أثنى من
جيفة حمار .

وعن معاذ بن جبل ، قال : سبيلي القرآن في صدور أقوام كما يبلى
الثوب فيتهافت ، يقرأونه فلا يجدون له شهوة ولا لذّة ، يلبسون
جلود الضأن على قلوب الذئاب ، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف ،
إن قصرُوا قالوا : سنبلغ ، وإن أساءوا ، قالوا : سيفقر لنا ، وإننا
لا نشرك بالله شيئاً » أخرجه أبو محمد الدارمي .

وعن سلامة بن الحرّ ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول : « إن من أشراط الساعة أن يتدافع أهل المسجد إماماً ،

فلا يجدون إماماً يصلى بهم ، أخرجهم أبو داود .

* * *

أولئك هم علماء السوء ...

وتلك هي طريقهم ...

ربّ سلم ، سلم ؟

د . محمد جميل غازي

كلمة المحقق

بقلم فضيلة الشيخ

على السيد المدني

رحمه الله

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ؛ تَعَالَوْا إِلَى
كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ
وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا
أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا - فَقُولُوا :
اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

[آل عمران : الآية ٦٤]

في أرض الله دعوات كثيرة ، تعمل في إصرارٍ على أن تحيا ،
وتجاهد في عنفٍ لكي تنتشر ، وتبذل الكثير لكي تحصل على
مزيدٍ من الأتباع والأصدقاء .

وتصطدم هذه الدعوات في قسوة ، وترتطم في عنادٍ ، كل
واحدة تريد لنفسها البقاء ، وترجو لأتباعها السيطرة .

ويزداد الصراع ويزداد، ويحتد، ويشتد .

ويحتوى الأرض قتام رهيب ، ويستبد بأهلها الخوف والقلق
والفزع ، وينزل بهم الرعب والأرق والجزع ، ويتطلمون فى لهفة
وحنين ، إلى ملجأ آمن ، أو مرفأ هادئ ، يجدون فى رحبته
السلام ، ويدوقون فى حماه السعادة .

ولكن : قسوة الإعصار ، وشدة الماصفة ، لفتهم عن سوائهم
وفتنهم عن أنفسهم ، فلم يستطيعوا أن يصلوا إلى الحق وهو قريب ،
ولا أن يبصروا النور وهو واضح ، ولا أن يستجيبوا لداعى الله
وهو مبين .

إن الدهول الذى حلّ بأهل هذا الكوكب البائس - الأرض -
ذهول طويل عريض عميق ، أحال صبحهم المشرق الوضاء إلى قتام
وغيام ، وحول أفراحهم الخلافة الطروب ، إلى دموع وآهات
وزفرات !

وانساب القطيع يمر بد فى عماء ، ويضرب فى سباب وقفار ،
وتشعبت به الطرق ، واختلطت فى ناظره السبل ، ومن حوله

« تجار الدعوات » يدعونه : إلى الهدى اثننا ، ويهرع المسكين إليهم
يلتمس الهدى ، ويقتبس النور ، فإذا - برق خلب ، ولكنه خلوف ،
وإذا ماء جار - ولكنه سراب .

ويرجع المسكين ، محطم القوى ، مزعزع اليقين ، مضطرب
الفكر ! لقد عاد ، حتى بلا خفي حنين .

* * *

في أرض الله دعوات كثيرة .

وفي أرض الله دعاة كثيرون .

ولكنها كلها دعوات موصولة بالطين ، مركوزة في الرغام ،
لم يباركها الله ، ولم تنزل من السماء ، إنما خلقتها الأهواء البشرية
خلقاً ، وافترتها النفوس المريضة افتراء .

وحتى الدعوات التي كان لها مدد من الله ، وعون من هدهاء ،
انحرفت في زهول عن سوائها ، وابتعدت في جنون عن نهجها ،

وعادت مزيجاً بغيضاً من الخرافات والأوهام والضلالات ، وآضت
 ركائماً هائلاً من الغرض والمرض والهوي .

* * *

وفي زاوية من زوايا الأرض ، وفي ركن من أركان هذا
 الكوكب البائس ، ينبعث صوت حان رحيم ، يدعو الضالين إلى
 الهداية ، وينادي الظماء إلى النبع ، ويدل الحيارى على الطريق .

هذا الصوت ، هو صوت الإسلام .

لإسلام ؛ كلمة الله الرحمن الرحيم ، إلى الأملاء التائهة ، ونور الله
 اللطيف الخبير إلى الأرجاء المعتمة .

ولا يكاد الصوت يصل إلى الآذان البليدة ، ولا يستقر في القلوب
 العنيدة ، لا لضعف به ، ولا لهوان في مبادئه ، ولكن : لأن أتباعه
 آثروا الصمت لأنه من ذهب ، وتركوا الجهاد في سبيله لأن له رباً
 يحميه ، - ولأن أعداءه أطلقوا حوله النحل الفاسدة ، والأكاذيب
 المفتراه ، ليصرفوا الناس عن هداة ، وليحجبوا عن الأعين سناه .

أفلا يعلم المسلمون : وهم حراس دعوة الله في الأرض ، والقوامون على الخير في هذه الدنيا .

أفلا يعلمون : أنهم مسئولون عن هداية كل ضال ، وإرشاد كل حائر ، والأخذ بيد كل عائر ؟

أفلا يعلمون : أن في أعناقهم رسالة يجب أن تؤدي على حساب دماءهم وأعصابهم وأموالهم ؟ إلا يفعلوا : تسكن فتنة في الأرض ، وفساد كبير .

* * *

أيها المسلمون : إنما كنتم خير أمة أخرجت للناس ، لأنكم تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله .

ليس اتفاقاً - إذآ - ولا اعتباطاً ولا محاباة ، أن تكونوا سادة الأرض ، وإنما لأنكم تحملون عناصر هذه السيادة .

الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والإيمان بالله .

وحينما تهجرون هذه العناصر ، وتتخلون عن هذه المقومات ، تنزل بكم لعنة الله التي نزلت على اليهود من قبل .

ألم يكن اليهود أيضاً - خير أمة أخرجت للناس - ؟

ألم يفضلهم الله على العالمين ؟

ثم ماذا ؟

ثم نزلت بهم لعنة الله ، ففقدوا قردة وخنازير .

أتدرون لماذا ؟

لأنهم : ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ﴾ .

إن الأمر بالمعروف .

وإن النهي عن المنكر .

إن الدعوة إلى الإسلام بكل أسلوب ، وإن الذبّ عن حياضه

بكل لسان ، أمر يوجبه موقفكم على الأرض ، يا حملة النور . إن

الدعوات الخاسئة الخاسرة من حولكم التي انبعثت من الطين ، من

الطمي ، من الرغام . تعمل في إصرار عجيب على أن تسود ، وتقوم

بنضال رهيب لكي تستبد .

تقدموا - يا أمة محمد عليه السلام - يا خير أمة أخرجت للناس -

خوضوا المعركة الشموس ، وشقوا العثير الكثيف ، وطأوا الأرض

الحزون، وأنقذوا الإنسانية من عثرتها السكائية، وأيقظوا البشرية من نومتها النافية .

ارفعوا صوتكم على كل صوت .

* * *

وأعلوا رايتكم على كل راية

اثالت هذه الشاعر والأحاسيس على خاطري ، وانساب القلم
يسجلها في حرارة وإيمان .

كان ذلك ؛ عقب أن قرأت الرسالة الطيبة المؤمنة الكريمة ،
التي أرسل بها « شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية » إلى ملك قبرص .

وترجمت على « ابن تيمية » ورضيت عنه ، لقد كان رجلا يؤمن
أنه مسئول عن تبليغ كلمة الله إلى كل أذن ، ونشر هداة في كل أفق .

كان يحزّ في نفسه ، أن يسمع أنين الأسارى المسلمين ، يتعالى
من عرض البحر ، وكان يؤرقه أن تنبث صيحة ألم من لهاة آخر

مسلم !

كان يؤمن هذا الإيمان !

وكان يحسّ هذا الإحساس !

ومن أجل هذا كتب إلى « ملك قبرص » :

ليتنا اليوم ننهج نفس المنهج ، ونسير في نفس السبيل .

إذا لتغيّر وجه الأرض . وإذا لتبدل أمر الناس !

* * *

إن الإسلام يحمل في طبيعته عناصر السموّ والسموق والانتشار .

إن دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

وإن قليلا من التفكير ، وإن قليلا من التدبّر كافٍ لجعل

الناس يمتنعونه حتماً ! لأنه دين يتواءم مع العقل ، ويتوافق مع

التفكير المنطقي السليم .

فبقليل من الدعاية ، وبقليل من التعريف به نصل إلى نتائج

سارة ناجحة .

وبقليل من الدعاية ، وبقليل من التعريف به يقبل عليه أحرار

الفكر من كل مكان ، لأنه الدين الوحيد الذي يرحّب بالفكر الحرّ ،

والعقل السليم ، والبحث العلمي المخلص . ولأنه الدين الوحيد الذي

يدعو إلى التدبّر والتأمّل والنظر ، ويطالب كل معتقد أن يدلّل على

ما يعتقد . ولأنه يحارب التقليد الأعمى ، والوقوف عندما خلفه الآباء والأجداد من تراث فكري ، بدون بحث أو دراسة أو موازنة .

والداعية المسلم اليوم لن يتحمل كثيراً من العنت والإرهاق ، لأن المدارس العلمية الحديثة ، سترحب به كثيراً وتسهل له الطريق كي يؤدي مهمته !

كل ما سيفعله الداعية المسلم أن يقدم دينه للناس ، خالياً من الضلالات والأوهام التي ألصقت به إصافاً ، سواء من الجهلة من أبنائه ، أم من الحقودين من أعدائه !

ويوم يقوم الداعية المسلم - بهذا العمل المشكور - يوم تنساب الأمم الظمأى ، والأفواج العطشى ، لتَرَدَّ المنبع الصافي الثجاج في لهفة وشوق وحنين .

* * *

ليست أمنية مجنحة ، وليست خيالات جامحة . أن أقول : إن الإسلام يحمل في أطوائه عوامل السمو والسموق والانتشار . وأن أقول : إن قليلاً من الدعاية له ، وإن قليلاً من التعريف به ؛ كافٍ

لكي يحول وجه البشرية شطره ، ولكي يلفت أنظار العالم إليه .
 فذلك هو الواقع تملية الثقافة البشرية المعاصرة ، التي تكفر
 بالخرافة مهما أخذت زخرفها وازينت ، وتنكر التقليد لأنها لا ترى
 أن الفكر البشري عقارٌ يورث ويُوهب ، إنما هو اقتناع وإيمان
 وعقيدة أولا وقبل كل شيء .

ومن هنا أؤمن بأن العقل الجديد لو التقى بالإسلام لعرفه ولما
 أنكره .

يقول « جورج برناردشو » الكاتب الإنجليزي المشهور ،
 في رسالة له بعنوان (نداء العمل) :

[... لا مشاحة أن العالم يعلق قيمة كبيرة على نبوءات كبار
 الرجال ، ولقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا غداً ،
 ولقد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم .

ولقد صوّر « إكليروس » القرون الوسطى الإسلام بأحلام
 الألوان ؛ إما بسبب الجهل ، أو بسبب التعصب الدميم .

ولقد كانوا في الواقع يرمون على كراهية محمد ، وكراهية دينه ،

وكانوا يعتبرونه خصماً للمسيح ، ولقد درستة باعتباره رجلاً مدهشاً
فرايته بعيداً عن غاصمة المسيح .

بلى يجب أن يدعى منقذ الإنسانية ...

وإني لأعتقد بأنه لو تولى رجل مثله دكتاتورية العالم الحديث
لنجح في حلّ مشكلاتها بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة ،
وهو في أشد الحاجة إليهما .

ولقد أدرك في القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون أمثال :
(كارليل) و (جون) و (جيمبون) القيمة الذاتية لدين محمد ، وهكذا
وجد تحوّل حسن في موقف أوروبا من الإسلام .

ولكن أوروبا في القرن الراهن تقدّمت في هذا السبيل كثيراً ،
فبدأت تعشق عقيدة محمد .

وفي القرن التالي ربما ذهبت إلى أبعد من ذلك فتعترف بفائدة
هذه العقيدة في حل مشكلاتها .

فهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتي .

وفي الوقت الحاضر كثيرون من أبناء قومي ، ومن أوروبا ، قد
دخلوا في دين محمد .

حتى ليتمكن أن يقال إن تحول أوروبا إلى الإسلام قد بدأ [.

* * *

ويقول السياسي الفرنسي « مسيو ليون روش » :

[عدت إلى الشريعة التي يسميها « جول سيمون » الشريعة الطبيعية فوجدتها كأنها أخذت من الإسلام أخذاً]^(١) .

* * *

ليست أمنية مجنحة إذا .

وليست خيالات جامحة ... ولكنها الواقع يمليه الضمير الإنساني الذي أراد أن يصل إلى الخير ، وإلى الحق ، وإلى النور .

* * *

رسالة « ابن تيمية » التي بين أيدينا ، محاولة كريمة نبيلة للدعوة إلى الله ، وقد ناقش فيها الرجل المؤمن الواعي ، الديانة المسيحية في هدوء وآنزان .

ناقش فكرة « التثليث » الوافدة على المسيحية المنزلة ، من الوثنيات القديمة ، وناقش فكرة « الصلب » المزعومة المفتراه . وناقش فكرة « نبوة المسيح لله » .

(١) انظر جول سيمون في الديانة التي تسود أفقه الأوربي ، فإذا بها لا ترضى إلا السذج والبلهاء ، لما فيها من تحريف وتجهيف : [كالتثليث ، والصلب ، والفداء ، والكهانة ، والرهبة] فخرج على الناس بما سماه الديانة الطبيعية ، التي تنادى بالتوحيد ، ومكارم الأخلاق والإيمان بالبعث .

ذكرني بالقاضي الباقلاني^(١) الذي سافر لمضد الدولة سنة ٧٣١هـ إلى الروم الشرقيين - فلما دخل يوماً على الإمبراطور ، وكان عنده بعض مطارنته ورهبانه - قال لهم مستهزئاً : [كيف أنتم ، وكيف الأهل والأولاد ؟] فتمعّج منه الإمبراطور ، وقال له : ذكر من أرسلك في كتابه أنك لسان الأمة ، ومتقدم على علماء الملّة ، أما علمت أننا نره هؤلاء عن الأهل والأولاد ؟ .

فقال القاضي أبو بكر : - عجيباً لكم - أنتم لاتنزهون الله سبحانه وتعالى عن الأهل والأولاد ، وتنزهون هؤلاء ؟ فكأن هؤلاء عندكم أقدس وأجلّ وأعلام من الله سبحانه وتعالى ؟

وكلام كثير ، ومناقشات شتى جرت بين القاضي الباقلاني وعلماء المسيحية ذكرها ابن الأثير في حوادث سنة ٣٧١هـ من السكامل . ولا حاجة لنا بسردها جميعها .

إنما نحن بحاجة إلى أن نقول إن « ابن تيمية » أجاد وأبدع في دعوته إلى الإسلام ، أيما إجاد وأيما إبداع .

ولقد وصل قمة الإجابة ، وذروة الإبداع ، في قوله مخاطباً

« سرجواس » :

[... فإن كان عند الملك من يشق بهقله ودينه ، فليبحث معه عن أصول العلم ، وحقائق الأديان ، ولا يرضى أن يكون من هؤلاء النصارى المقلدين الذين لا يسمعون ولا يعقلون إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضلّ سبيلاً .

وأصل ذلك أن تستعين بالله ، وتسأله الهداية ، وتقول : اللهم أرني الحق حقاً وأعني على اتباعه ، وأرني الباطل باطلاً ، وأعني على اجتنابه ، ولا تجعله مستتباً عليّ فأتبع الهوى .

وقل : اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم) .

فكانه يدعوهُ إلى :

١ - التفكير الحرّ

٢ - والإخلاص في هذا التفكير الحرّ

وهذا هو اعتداد الداعية المسلم بدينه ، وبالخير الذي يحمله .
إن الداعية المسلم لا ينثر الذهب عميناً وشمالاً ليؤمن الناس ، إنما يدعوهم إلى التفكير المخلص فقط .

وبعد : فهذا هو « ابن تيمية » المسلم في إخلاصه واعتداده واتزانه
رضى الله عنه ، وأثابه ، وأعظم له الأجر .

ووفق الله المسلمين ؛ في شتى البقاع والأصقاع ، إلى أن ينهجوا
نهجه - حتى تكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا
هي السفلى .

وصدق الله العظيم :

﴿ مَنزِلِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ
الْحَقُّ ﴾ (٥)

على السيد صبح المديني

رحمه الله

القاهرة في { ٢٠ شوال ١٣٨٠ هـ
٦ أبريل ١٩٦١ م

الرّسالة القبرصية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

• من : أحمد بن تيمية .

إلى : سرجوان عظيم أهل ملته ، ومن تحوط به عنايته من رؤساء الدين ، وعظماء القسيسين ، والرهبان ، والأمراء ، والكتاب ، وأتباعهم .

سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد :

• فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ؛ إله إبراهيم وآلِ عمران^(١) .

ونسأله أن يصلي على عباده المصطفين وأنبيائه المرسلين .

ويخص بصلاته وسلامه أولى العزم^(٢) ، الذين هم سادة الخلق

(١) إنما خص « الإمام » رحمه الله بالذكر لإبراهيم وآل عمران ، لأن الخليل عليه السلام أبوالأنبياء ، ولأن المقصود بآل عمران « مريم » أم السيد المسيح عليه السلام - ومراعاة لقوله تعالى : [إن الله اصطفى آدم ونوحاً ، وآل إبراهيم ، وآل عمران على العالمين] .

(٢) العزم هو الصبر على تحمل المشاق ، ولأنما سمي هؤلاء أولو العزم لأنهم تحملوا المشاق أكثر من غيرهم .

وقادة الأمم ، الذين خُصُّوا بأخذ الميثاق ، وم : نوح وإبراهيم
وموسى وعيسى ومحمد ، كما سماهم الله تعالى فى كتابه فقال عز وجل :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ، وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ،
وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا
تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِى
إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ، وَمِنْكَ ، وَمِنْ
نُوحَ ، وَإِبْرَاهِيمَ ، وَمُوسَى ، وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ
مِيثَاقًا غَلِيظًا ، لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ، وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ^(٢) .

* * *

• ونسأله أن يخص بشرائف صلاته وسلامه خاتم المرسلين
وخطيبهم إذا وفدوا على ربهم ، وإمامهم إذا اجتمعوا ، شفيع الخلائق

(١) الشورى : ١٣ .

(٢) الأحزاب : ٧ ، ٨ .

يوم القيامة ، نبي الرحمة ونبي الملحمة^(١) . الجامع محاسن الأنبياء ،
الذي بشر به عبد الله وروحه وكلمته التي ألقاها إلى الصديقة الطاهرة
البتول^(٢) التي لم يمسهها بشر قط : مريم ابنة عمران — ذلك مسيح
المهدي عيسى ابن مريم ، الوجيه في الدنيا والآخرة ، المقرب عند الله ،
المذموت بنعت الجلال والرحمة لما انجر بنو إسرائيل فيما بعث به
موسى من نعمت الجلال والشدة ، وبعث الخاتم^(٣) الجامع بنعت
الكمال المشتمل على الشدة على الكفار ، والرحمة بالمؤمنين ،
والمحتوى على محاسن الشرائع والمناهج التي كانت قبله صلى الله عليه
وسلم أجمعين ، وعلى من تبعهم إلى يوم القيامة .

• أما بعد :

فإن الله خلق الخلائق بقدرته ، وأظهر فيهم آثار مشيئته

(١) الحرب — والنبي صلى الله عليه وسلم « نبي — أمر بالحرب » . ولكن لا ينبغي أن
ننسى أنه نبي الرحمة أيضاً — يمثل المعنى الأول القول الكريم : [قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله
ولا اليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا
الكتاب حتى يسطوا الجزية عن يدهم صاغرون] . ويمثل المعنى الثاني القول الكريم :
[وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله] .

(٢) البتول : المرأة المنقطعة من الأزواج أي : العذراء ، أو المنقطعة إلى ربها تبعده ،
— وقد يكون المقصود كلا المعنيين هنا — ولكن الأول أظهر .

(٣) يقصد محمداً صلى الله عليه وسلم .

وحكمته ورحمته ، وجعل المقصود الذى خلقوا له فيما أمرهم به هو عبادته .

وأصل ذلك هو معرفته ومحبته . فمن هداه الله صراطه المستقيم ، آتاه رحمةً وعلمًا ومعرفةً بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، ورزقه الإنابة إليه ، والوجل لذكركه والخشوع له ، والتأله له^(١) ؛ فحنَّ إليه حينئذٍ النور إلى أوكارها ، وكلف بحبه كلف الصبي بأمه ، لا يعبد إلا إياه رغبةً ورهبةً ومحبةً ، وأخلص دينه لمن الدنيا والآخرة له ، ربُّ الأولين والآخرين ، مالك يوم الدين ، خالق ما تبصرون ، وما لا تبصرون ، عالم الغيب والشهادة ، الذى أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . لم يتخذ من دونه أنداداً^(٢) — كالذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله . ولم يشرك بربه أحداً ، ولم يتخذ من دونه ولياً ولا شافعياً ، لا مَلَكاً ولا نبيّاً ولا صديقاً ؛ فإن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدَّهم عدداً . وكلهم آتية يوم القيامة فرداً — فهناك اجتباه ربه ، واصطفاه وآتاه رشده ، وهداه لما

(١) التأله : التحدث والتعبد .

(٢) الد : المثل والنظير .

«اختلف فيه من الحق بإذنه ؛ فإنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

[قصة الصراع بين التوحيد والشرك]

• وذلك :

أن الناس كانوا بعد آدم عليه السلام - وقبل نوح عليه السلام ، على التوحيد والإخلاص ؛ كما كان عليه أبوه آدم أبو البشر - عليه السلام ! - حتى ابتدعوا الشرك وعبادة الأوثان بدعة من تلقاء نفوسهم - لم ينزل الله بها كتاباً ، ولا أرسل بها رسولا - بشبهات زينها الشياطين من جهة المقاييس الفاسدة ، والفلسفة الخائذة .

قوم منهم : زعموا ؛ أن التماثيل طلائع السكواكب السماوية ، والدرجات الفلكية ، والأرواح العلوية .

وقوم : اتخذوها على صورة من كان فيهم من الأنبياء والصالحين^(١) .

(١) فسر « ابن عباس » رضى الله عنه القول الكريم : [وقالوا لا تدرن أنفسكم ، ولا تدرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً] بقوله : - هذه أسماء رجال من قوم نوح ، لا هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون عليها أنصاباً ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم يبدوا - حتى إذا هلك أولئك ، ونسى العلم - عبت .

وقوم : جعلوها لأجل الأرواح السفلية من الجن ، والشياطين .

وقوم : على مذاهب آخر .

وأكثرهم لرؤسائهم مقلدون ، وعن سبيل الهدى ناكبون ، فابتعث الله نبيه نوحاً عليه السلام ! - يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه ؛ وإن زعموا أنهم يعبدونهم ليتقربوا بهم إلى الله زانق ويتخذوهم شفعاء - فكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فلما أعلمه الله أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، دعا عليهم فأغرق الله تعالى أهل الأرض بدعوته .

• وجاءت الرسل بعده تترى^(١) ، إلى أن عمّ الأرض دين الصابئة والمشركين - لما كان النماردة^(٢) والفراعنة ملوك الأرض شرقاً وغرباً - فبعث الله تعالى إمام الحنفاء^(٣) ، وأساس الملة الخالصة ، والكلمة الباقية : إبراهيم خليل الرحمن .

(١) تتوالى .

(٢) النماردة - جمع نمروذ - بتخفيف النال إلى الدال - والنمروذ - هو الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك .

(٣) الحنفاء - جمع حنيف - وهو المسلم .

فدعا الخلق من الشرك إلى الإخلاص، ونهاهم عن عبادة الكواكب والأصنام، وقال :

﴿وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١).

وقال لقومه : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ، أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ، فَإِنَّهُمْ عَدَوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ، الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ - وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾^(٢).

وقال إبراهيم عليه السلام ومن معه لقومهم :

﴿إِنَّا بَرَاءُكُمْ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾^(٣).

(١) الأنعام : ٧٩ .

(٢) الشعراء : ٧٥ - ٨٢ .

(٣) المتجدة : ٤ .

• فجعل الله الأنبياء والمرسلين من أهل بيته^(١) ، وجعل لكل منهم خصائص ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، وآتى كلا منهم من الآيات ؛ ما آمن على مثله البشر .

فجعل لموسى العصا حيّة حتى ابتلعت ما صنعت السحرة الفلاسفة من الجبال والعصى ، وكانت شيئاً كثيراً . وفلق له البحر حتى صار يابساً ، والماء واقفاً حاجزاً بين اثني عشر طريقاً على عدد الأسباط ، وأرسل معه القمّل والضفادع والدم ، وظلل عليه وعلى قومه الغمام الأبيض يسير معهم . وأنزل عليهم صبيحة كل يوم المنّ والسلوى ، وإذا عطشوا ضرب موسى بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ؛ قد علم كل أناس مشربهم .

• وبعث بعده أنبياء من بنى إسرائيل ؛ منهم من أحيا الله على يده الموتى .

ومنها من شفى الله على يده المرضى .

ومنها من أطلعه على ما شاء من غيبه . منها من سخر

(١) ذلك أن إبراهيم عليه السلام ا وهب ولدين : إسماعيل وإسحاق أما إسماعيل فلم يكن من ذريته نبي إلا أنبياء صلى الله عليه وسلم - وأما إسحاق فكان من ذريته جميع أنبياء بنى إسرائيل - وإسرائيل عليه السلام هو (يعقوب بن إسحاق) .

له المخلوقات . ومنهم من بعثه بأنواع المعجزات .

وهذا مما اتفق عليه جميع أهل الملل ، وفي الكتب التي بأيدي اليهود والنصارى ، والنبوات التي عندهم وأخبار الأنبياء عليهم السلام ؛ مثل : أشعياء ، وأرمياء ، ودانيال ، وحبقوق ، وداود ، وسليمان ، وغيرهم — وكتاب سفر الملوك ^(١) وغيره من الكتب مما فيه معتبر .

[المسيح .. وبنو إسرائيل]

• وكانت بنو إسرائيل أمة فاسية عاصية ، تارة يعبدون الأصنام والأوثان ، وتارة يعبدون الله ، وتارة يقتلون النبيين بغير الحق ، وتارة يستحلون محارم الله بأدنى الحيل .

فلعنوا أولاً على لسان داود — وكان من خراب بيت المقدس ما هو معروف عند أهل الملل كلهم .

• ثم بعث الله المسيح ابن مريم رسولا ، قد خلت من قبله الرسل ، وجعله وأمه آية للناس ؛ — حيث خلقه من غير أب

(١) أحد أسفار العهد القديم .

إظهار آلال كمال قدرته ، وشمول كلمته ، - حيث قسّم النوع الإنسانى
الأقسام الأربعة :

فجعل آدم من غير ذكر ولا أنثى .

وخلق زوجه حواء من ذكر بلا أنثى .

وخلق ، المسيح ابن مريم من أنثى بلا ذكر .

وخلق سائرهم من الزوجين الذكر والأنثى .

وأتى عبده المسيح من الآيات البينات ماجرت به سنته ،
فأحيا الموتى ، وأبرأ الأكمه والأبرص ، وأنبأ الناس بما يأكلون
وما يدخرون فى بيوتهم - ودعا إلى الله وإلى عبادته ، متبعاً سنة
إخوانه المرسلين ، مصداقاً لمن قبله ، ومبشراً بمن يأتى بعده .

[الناس يختلفون فى عيسى]

• وكان بنو إسرائيل قد عتَوْا وتمردوا - وكان غالب أمره ^(١)

اللين والرحمة ، والعفو والصفح ، وجعل فى قلوب الذين اتبعوه رافة
ورحمة ، وجعل منهم قسيسين ورهباناً .

(١) يعنى المسيح عليه السلام .

• فتفرق الناس في المسيح عليه السلام ومن اتبعه من الحواريين
ثلاثة أحزاب :

قوم كذبوه وكفروا به ، وزعموا أنه ابن بنى ، ورموا أمه
بالفرية ، ونسبوه إلى يوسف النجار^(١) ، وزعموا أن شريعة التوراة
لم ينسخ منها شيء ، وأن الله لم ينسخ ما شرعه .

— بعد ما فعلوه بالأنبياء ، وما كان عليهم من الأصار في
النجاسات والمطاعم^(٢) .

وقوم : غلوا فيه وزعموا : أنه الله ، وابن الله ، وأن اللاهوت^(٣)
تدرّج الناسوت^(٣) ، وأن رب العالمين نزل ، وأنزل ابنه ليصلب
ويقتل فداءً لخطيئة آدم عليه السلام .

• وجعلوا الإله الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن
له كفواً^(٤) أحد . قد ولد ، واتخذ ولداً ، وأنه إله حتى عليم قدير

(١) يوسف النجار هذا - كان خاطباً لمريم عليها السلام .

(٢) المقصود بهؤلاء القوم - اليهود - أخزاهم الله !

(٣) اللاهوت ، والناسوت - كلمتان معناهما : الله ، والإنسان وزيدت الواو والتاء على

كل من اللفظين من باب [زيادة المبنى] تدل على زيادة المعنى .

(٤) كفواً - مخفف كف - وهو النظير .

جوهر واحد - ثلاثة أقانيم^(١) - وأن الواحد منها أقنوم الكلمة
وهي العلم ، هي تدرّعت الناسوت البشري .

مع العلم بأن أحدهما لا يمكن انفصاله عن الآخرين ، إلا إذا
جعلوه ثلاثة إلهات متباينة ، وذلك ما لا يقولونه .

• وتفرقوا في التثليث والاتحاد تفرقاً وتشتتوا تشتتاً لا يقرُّ به
عقل ، ولم يحىء به نقل ؛ إلا كلمات متشابهات^(٢) في الإنجيل وما قبله
من الكتب ، قد بينتها كلمات محكمات في الإنجيل وما قبله ، كلها
تنطق بعبودية المسيح وعبادته لله وحده ، ودعائه وتضرعه^(٣) .

[انحراف النصارى]

• ولما كان أصل الدين : هو الإيمان بالله ، ورساله - كما قال خاتم
النبيين والمرسلين : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ
إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ » .

(١) الأقانيم : جمع أقنوم وهو : الأصل ، ولعلها كلمة رومية .
(٢) كقول العهد الجديد على لسان المسيح : [اذهبوا إلى جميع الأمم ، وعمدوهم باسم الأب
والابن وروح القدس الإله الواحد] .
(٣) راجع : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام ابن تيمية في أرومة
مجلدات .

وقال : « لاتطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » ^(١) .

كان أمر الدين توحيد الله ، والإقرار برسله . ولهذا كان الصابثون والمشركون كالبراهمة ^(٢) ونحوهم من منكرى النبوات مشركين بالله فى إقرارهم وعبادتهم ، وفاسدى الاعتقاد فى رسله .

فأرباب التثليث فى الوجدانية ، والاتحاد فى الرسالة ، قد دخل فى أصل دينهم من الفساد ما هو بين بفطرة الله التى فطر الناس عليها ، وبكتب الله التى أنزلها .

ولهذا كان عامة رؤسائهم من القسيسين والرهبان ، وما يدخل فيهم من البطارقة ، والمطارنة ، والأساقفة ، إذا صار الرجل منهم فاضلا مميّزاً - فإنه ينحل عن دينه ويصير منافقا لملوك أهل دينه ، وعامتهم ، رضى بالرياسة عليهم وبما يناله من الحظوظ ؛ كالذى كان يبيت المقدس ، الذى يقال له : « ابن البورى » - والذى كان بدمشق الذى يقال له : « ابن القف » - والذى بقسطنطينية وهو :

(١) الإطراء : المدح .

(٢) جمع برهمى - نسبة إلى معبودهم براهما - وهم يؤمنون بتناسخ الأرواح وهم لهذه يعبدون الحيوان لاعتقادهم أن أرواح آبائهم وأجدادهم حلت فيه .

« البابا » عندهم — وخلق كثير من كبار « الباباوات » والمطارنة ،
والأساقفة — لما خاطبهم قومٌ من الفضلاء أقرؤا لهم بأنهم ليسوا
على عقيدة النصراني ، وإنما بقاؤهم على ما هم عليه لأجل العادة والرياسة ؛
كبقاء الملوك والأغنياء على ملكهم وغنائم . ولهذا تجد غالب فضلائهم
إنما همّة أحدهم نوع من العلم الرياضي — كالمنطق والهيئة والحساب
والنجوم ، أو الطبيعى — كالطب ، ومعرفة الأركان . أو التسكّم في
الإلهي على طريقة الصابئة الفلاسفة الذين بُعث إليهم إبراهيم الخليل
عليه السلام ؛ قد نبذوا دين المسيح والرسل الذين قبله وبعده ، وراء
ظهورهم ، وحفظوا رسوم الدين لأجل الملوك والعامة .

• وأما الرهبان فأحدثوا من أنواع المكر والحيل بالعامة ،
ما يظهر لكل عاقل — حتى صَنَّف الفضلاء في حيل الرهبان كتباً
مثل : النار التي كانت تصنع — بقمامة يدهنون خيطاً دقيقاً
« بسندروس » ويلقون النار عليه بسرعة فتنزل — فيعتقد الجهال أنها
نزلت من السماء ويأخذونها إلى البحر ، وهي صنعة ذلك الراهب ،
يراه الناس عياناً ، وقد اعترف هو وغيره بأنهم يصنعونها .

• وقد اتفق أهل الحق من جميع الطوائف على أنه لا تجوز عبادة
الله تعالى بشيء ليس له حقيقة .

وقد يظن المنافقون أن ما ينقل عن المسيح وغيره ، من المعجزات ، من جنس النار المصنوعة ، وكذلك حيلهم في تعليق الصليب ، وفي بكاء التماثيل التي يصورونها على صورة المسيح وأمه وغيرهما ونحو ذلك — كل ذلك ، يعلم كل عاقل أنه إفك مفترى ، وأن جميع أنبياء الله ، وصالحى عباده برآء من كل زور باطل ، وإفك كبرائهم من سحر سحرة فرعون .

• ثم إن هؤلاء عمدوا إلى الشريعة التي يعبدون الله بها ، فناقضوا الأولين من اليهود فيها ، مع أنهم يأمررون بالتمسك بالتوراة ؛ إلا مانسخه المسيح .

[تناقض]

• قصر هؤلاء في الأنبياء حتى قتلهم ، وغلا هؤلاء فيهم حتى عبدوهم وعبدوا تماثيلهم .

وقال أولئك : إن الله لا يصلح له أن يغير ما أمر به فينسخه لافى وقت آخر ، ولا على لسان نبي آخر .

وقال هؤلاء : بل الأجبار والتفسيرون يغيرون ما شاءوا ، ويحرمون ما رأوا ومن أذنب ذنباً وظفوا عليه ما رأوا من العبادات

وغفروا له . ومنهم من يزعم أنه ينفخ في المراءة من روح القدس
فيجعل البخور : قربانا .

وقال أولئك : حرّم علينا أشياء كثيرة - وقال هؤلاء : ما بين
« البقرة » و « الفيل » حلالٌ - كلٌ ماشئت ، ودع ماشئت .

وقال أولئك : النجاسات مغلّظة حتى إن الحائض لا يُقعد معها ،
ولا يؤكل معها .

وهؤلاء يقولون : ما عليك شيء نجس ، ولا يأمرن بختان
ولا غسل من جنابة ولا إزالة نجاسة ، مع أن المسيح والحواريين
كانوا على شريعة التوراة .

[عبادات مبتدعة]

• ثم إن الصلاة إلى المشرق ، لم يأمر بها المسيح ،
ولا الحواريون ، ابتدعها قسطنطين^(١) أو غيره . وكذلك الصليب

(١) - قسطنطين - رجل رفعه النصارى على سرير الأباطرة سنة ٣٠٥ م . واتصرت
به النصرانية اتصاراً عظيماً في ميدان القتال ، ولكنها انهزمت به انهزاماً شديداً في معترك
الأديان . يقول (درابر) ص ١٥٧ - ماذا خسر العالم بالخطايا المسلمين لأبى الحسن الندوى
[دخلت الوثنية والعرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة .
ومناصب عالية في الدولة الرومية ، بظواهرهم بالنصرانية ، ولم يكونوا يحتفلون بأمر الدين ،
ولم يخلصوا له يوماً من الأيام ، وكذلك كان قسطنطين قد قضى عمره في الظلم والفجور .
ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً في آخر عمره سنة ٣٣٧ م] .

إنما ابتدعه قسطنطين برأيه ، وبغنام زعم أنه رآه .

وأما المسيح والحواريون فلم يأمرُوا بشيء من ذلك .

• والدين الذى يتقرَّب العباد به إلى الله ، لا بد أن يكون الله أمر به وشرعه على السنة رسله وأنبيائه ؛ وإلا فالبدع كلها ضلالة ، وما عبدت الأوثان إلا بالبدع . وكذلك إدخال الألحان فى الصلوات لم يأمر بها المسيح ولا الحواريون .

وبالجملة : فعمامة أنواع العبادات والأعياد التى هم عليها لم يُنزل بها الله كتاباً ، ولا بعث بها رسولا .

[مقارنة بين اليهود والنصارى]

• لكن فيهم رأفة ورحمة ، وهذا من دين الله^(١) . بخلاف الأولين^(٢) فإن فيهم قسوة ومقتاً ، وهذا مما حرَّمه تعالى ؛ لكن : الأولون^(٣) لهم تمييز وعقل مع العناد والكبر . والآخرون^(٤) فيهم ضلال عن الحق ، وجهل بطريق الله .

(٢) يعنى اليهود .

(٤) يعنى النصارى .

(١) يعنى النصارى .

(٣) يعنى اليهود أيضاً .

• ثم إن هاتين الأمتين تفرقتا أحزاباً كثيرة في أصل دينهم واعتقادهم في معبودهم ورسولهم .

هذا يقول : إن جوهر اللاهوت والناسوت صاراً جوهرًا واحدًا ، وطبيعة واحدة ، وأقنوماً واحدًا ؛ وهم اليعقوبية .

وهذا يقول : بل هما جوهران ، وطبيعتان ، وأقنومان : وهم النسطورية .

وهذا يقول بالاتحاد من وجه دون وجه ؛ وهم المملكانية .

• وقد آمن جماعات من علماء أهل الكتاب قديماً وحديثاً ، وهاجروا إلى الله ورسوله ، وصنّفوا في كتب الله من دلالات نبوة النبي خاتم المرسلين ، وما في التوراة والزبور والإنجيل من مواضع لم يدبروها ، وكذلك الحواريون .

فلما اختلف الأحزاب من بينهم هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، فبعت النبي الذي بشر به المسيح ومن قبله من الأنبياء — داعياً إلى ملة إبراهيم ، ودين المرسلين قبله وبعده ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإخلاص الدين كله لله ، وطهر الأرض من عبادة الأوثان ، ونزه الدين عن الشرك دِقَّةً وَجِلَّةً ، بعد ما كانت

الأصنام تُعبد في أرض الشام وغيرها في دولة بني إسرائيل ، ودولة
الذين قالوا : إنا نصارى ، وأمر بالإيمان بجميع كتب الله المنزلة
كالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، وبجميع أنبياء الله من آدم
إلى محمد .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ
بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ
وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ
لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ، فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ
مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ
فَسَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ
مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ (١) .

• وأمر الله ذلك الرسول بدعوة الخلق إلى توحيده بالعدل ؛

فقال تعالى :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

(١) البقرة : ١٣٥ - ١٣٨ .

أَلَّا نَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا آذِينَ بَعْضًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ^(١) .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾^(٢) .

قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾^(٣) .

• وأمره أن تكون صلاته وحجّه إلى بيت الله الحرام ؛ الذى بناه خليله إبراهيم ، أبو الأنبياء ، وإمام الخنفاء ، وجعل أمته وسطًا ، فلم يغلو فى الأنبياء كغلو من عدلهم^(٤) بالله ، وجعل فيهم شيئًا من الإلهية ، وعبدتهم ، وجعلهم شفعاء ، ولم يحفوا جفاء من آذام ،

(١) آل عمران : ٦٤

(٢) الشورى : ٥١ .

(٣) آل عمران : ٧٩ ، ٨٠ .

(٤) عدل : بمعنى سوى .

واستخفَّ بحرماتهم ، وأعرض عن طاعتهم ؛ بل عزروا الأنبياء : أى
عظموهم ، ونصروهم ، وآمنوا بما جاءوا به ، وأطاعوهم ، واتبعوهم ،
واشمئوا بهم ؛ وأحبوهم ، وأجلوهم ، ولم يعبدوا إلا الله ؛ فلم يتكلموا
إلا عليه ، ولم يستعينوا إلا به ، مخلصين له الدين حنفاء .

• وكذلك فى الشرائع ، قالوا : ما أمرنا الله به أطعناه ، وما نهانا
عنه انتهينا . وإذا نهانا عما كان أحله ؛ كما نهى بنى إسرائيل عما كان
أباحه ليعقوب ، أو أباح لنا ما كان حراماً ؛ كما أباح المسيح بعض الذى
حرَّم الله على بنى إسرائيل — سمعنا وأطعنا .

وأما غير رسل الله وأنبيائه فليس لهم أن يبدلوا دين الله ،
ولا يبتدعوا فى الدين ما لم يأذن به الله . والرسل إنما قالوا تبليغاً عن
الله ؛ فإنه سبحانه له الخلق والأمر ، فكما لا يخلق غيره ، لا يأمر غيره
﴿ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ آمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(١) .

[الأمة الوسط]

• وتوسّطت هذه الأمة في الطهارة والنجاسة ، وفي الحلال والحرام ، وفي الأخلاق ، ولم يجرّدوا الشدة كما فعله الأولون^(١) ، ولم يجرّدوا الرأفة كما فعله الآخرون^(٢) ؛ بل عاملوا أعداء الله بالشدة ، وعاملوا أولياء الله بالرأفة والرحمة ، وقالوا : في المسيح ما قاله سبحانه وتعالى ، وما قاله المسيح والحواريون ، لا ما ابتدعه الغالون ، والجافون .

• وقد أخبر الحواريون عن خاتم المرسلين : أنه يبعث من أرض اليمن ، وأنه يبعث بقضيب الأدب ، وهو السيف .

وأخبر المسيح : أنه يحىء بالبينات والتأويل ، وأن المسيح جاء بالأمثال ، وهذا باب يطول شرحه .

• وإنما نبه الداعى لعظيم ملته وأهله ، لما بلغنى ما عنده من الديانة والفضل ، ومحبة العلم وطلب المذاكرة . ورأيت الشيخ أبا العباس المقدسى : شاكرآ من الملك ، من رفقه ولطفه ، وإقباله عليه ، وشاكرآ من القسيسين ونحوهم .

(٢) يعنى النصارى .

(١) يعنى اليهود .

• ونحن قوم نحب الخير لكل أحد ، ونحب أن يجمع الله لكم خير الدنيا والآخرة ؛ فإن أعظم ما عبد الله به نصيحة خلقه ؛ وبذلك بعث الله الأنبياء والمرسلين . ولا نصيحة أعظم من النصيحة فيما بين العبد وبين ربه ؛ فإنه لا بد للعبد من لقاء الله ، ولا بد أن الله يحاسب عبده ؛ كما قال تعالى :

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١) .

وأما الدنيا فأمرها حقير ، وكبيرها صغير ، وغاية أمرها يعود إلى الرياسة والمال . وغاية ذى الرياسة أن يكون كفرعون . الذى أغرقه الله فى اليم انتقاماً منه . وغاية ذى المال أن يكون كقارون . الذى خسف الله به الأرض ؛ فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة لما آذى نبي الله موسى .

• وهذه وصايا المسيح ومن قبله ومن بعده من المرسلين ، كلها تأمر بعبادة الله والتجرد للدار الآخرة ، والإعراض عن زهرة الحياة الدنيا . ولما كان أمر الدنيا خسيساً ، رأيت أن أعظم ما يهدى لعظيم قومه : المفاتحة فى العلم والدين بالذاكرة فيما يقرب إلى الله ؛ والكلام

في الفروع مبني على الأصول . وأتم تعلمون أن دين الله لا يكون بهوى النفس ، ولا بعبادات الآباء وأهل المدينة ؛ وإنما ينظر العاقل فيما جاءت به الرسل ، وفي ما اتفق الناس عليه وما اختلفوا فيه ، ويعامل الله تعالى بينه وبين الله تعالى ، بالاعتقاد الصحيح ، والعمل الصالح ، وإن كان لا يمكن الإنسان أن يظهر كل ما في نفسه لكل أحد ، فينتفع هو بذلك القدر .

• وإن رأيتُ من الملك رغبة في العلم والخير كآبته وجاوبته عن مسائل يسألها ، وقد كان خطر لى أن أجيء إلى قبرص لمصالح في الدين والدنيا ، لكن إذا رأيت من الملك ما فيه رضى الله ورسوله عاملته بما يقتضيه عمله ؛ فإن الملك وقومه يعلمون أن الله قد أظهر من معجزات رسله عامة ومحمد خاصة ما أيّد به دينه ، وأذل الكفار والمنافقين .

[شيخ الإسلام يحارب المغول]

• ولما قدم مقدم المغول غازان^(١) وأتباعه إلى دمشق^(٢) وكان

(١) غازان أو (قازان) قائد من قواد المغول .

(٢) من حكمة الله : أن شيخ الإسلام الذي فر به أبوه وهو طفل من العراق من وجه التتار ، يلتقى بهم ويحاربهم وهو كبير في الشام .

قد انتسب إلى الإسلام ، لكن لم يرض الله ورسوله والمؤمنون
يعاقلوه ، حيث لم يلتزموا دين الله .

وقد اجتمعت به وبأمرائه ، وجرى لى معهم فصول يطول
شرحها ؛ لابد أن تكون قد بلغت الملك .

فأذله الله وجنوده لنا ، حتى بقينا نضربهم بأيدينا ، ونصرخ فيهم
بأصواتنا ، وكان معهم صاحب سيس مثل أصفر غلام يكون ، حتى
كان بعض المؤذنين الذين معنا يصرخ عليه ويشتمه ، وهو لا يجترئ
أن يجاوبه ، حتى أن وزراء غازان ذكروا ماينم عليه من فساد النية
له . وكنت حاضراً لما جاءت رسلكم إلى ناحية الساحل ، وأخبرني
التتار بالأمر الذي أراد صاحب سيس أن يدخل بينكم وبينه فيه ،
حيث منّاكم بالفروور ، وكان التتار من أعظم الناس شنيمة لصاحب
سيس وإهانة له ، ومع هذا فإننا كنا نعامل أهل ملتكم بالإحسان
إليهم ، والذب عنهم .

• وقد عرف النصارى كلهم أنى لما خاطبت التتار فى إطلاق
الأسرى وأطلقهم غازان وقطلو شاه ، وخاطبت مولاي فيهم ، فسمح
بإطلاق المسلمين قال لى : لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس
غزولاء لا يطلقون ، فقلت له : بل جميع من معك من اليهود والنصارى

للذين هم أهل دَمْتنا فإننا نفتكهم ، ولا ندع أسيراً ، لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة ، وأطلقنا من النصارى من شاء الله - فهذا عملنا وإحساننا والجزاء على الله .

وكذلك السبي الذى بأيدينا من النصارى ، يعلم كل أحد إحساننا ورحمتنا ورأفتنا بهم ؛ كما أوصانا خاتم المرسلين ، حيث قال فى آخر حياته : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » قال الله تعالى فى كتابه :
 ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (١) .

• ومع خضوع التتار لهذه الملة ، وانتسابهم إلى هذه الملة ، فلم نخادعهم ، ولم نناققهم ؛ بل بيدنا لهم ما هم عليه من الفساد والخروج عن الإسلام ، الموجب لجهادهم ، وأن جنود الله المؤيَّدة ، وعساكره المنصورة ، المستقرة بالديار الشامية والمصرية ، مازالت منصوره على من ناوأها ، مظفرة على من عاداها .

وفى هذه المدة لما شاع عند العامة أن التتار مسلمون ، أمسك العسكر عن قتالهم : فقتل منهم بضعة عشر ألفاً ، ولم يقتل من المسلمين مائتان .

(١) الإنسان : ٨ .

فلما انصرف العسكر إلى مصر وبلغه ما عليه هذه الطائفة الملعونة من الفساد وعدم الدين ، خرجت جنود الله ، وللأرض منها وثيد ، قد ملأت السهل والجبل ، في كثرة وقوة وعدة وإيمان وصدق ، قد بهرت العقول والألباب : محفوفة بملائكة الله ، التي مازال يُعِدُّ بها الأمة الحنيفة المخلصة لبارئها ؛ فانهزم العدو بين أيديها ، ولم يقف لمقابلتها .

ثم أقبل العدو ثانياً ، فأرسل عليه من العذاب ما أهلك النفوس والخيال ؛ وانصرف خاسئاً ، وهو حسير ، وصدق الله وعده ، ونصر عبده ؛ وهو الآن في البلاء الشديد ، والتعكيس العظيم ، والبلاء الذي أحاط به .

والإسلام في عز متزايد ، وخير مترافد ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة في رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » .

• وهذا الدين في إقبال وتجديد ، وأنا ناصح للملك وأصحابه ، والله الذي لا إله إلا هو ، الذي أنزل التوراة ، والإنجيل والفرقان .

• ويعلم الملك أن وفد نجران ، وكانوا نصارى كلهم فيهم

الأسقف وغيره ، لما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعاهم إلى الله ورسوله وإلى الإسلام ، خاطبوه في أمر المسيح وناظروه ، فلما قامت عليهم الحجة جعلوا يراوغون ، فأمر الله نبيه أن يدعوهم إلى المباهلة ، كما قال :

﴿ قَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ونِسَاءَنَا ونِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ (١).

فلما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك استشوروا بينهم ، فقالوا : تعلمون أنه نبي ، وأنه ما باهل أحد نبياً فأفلح ، فأدوا إليه الجزية ، ودخلوا في الذمة ، واستمفوا من المباهلة .

• وكذلك بعث النبي صلى الله عليه وسلم كتابه إلى قيصر ، الذي كان ملك النصارى بالشام والبحر إلى قسطنطينية ، وغيرها ، وكان ملكاً فاضلاً ، فلما قرأ كتابه وسأل عن علامته عرف أنه النبي الذي بشر به المسيح ، وهو الذي كان وعد الله به إبراهيم في ابنه إسماعيل ،

وجعل يدعو قومه النصارى إلى متابعتة ، وأكرم كتابه ، وقبله ، ووضع على عينيه ، وقال : وددت أنى أخلص إليه حتى أغسل عن قدميه ، ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه .

• وأما النجاشى ملك الحبشة النصرانى ، فإنه لما بلغه خبر النبى صلى الله عليه وسلم من أصحابه الذين هاجروا إليه ، آمن به وصدقته ، وبعث إليه ابنه وأصحابه مهاجرين ، وصلى النبى صلى الله عليه وسلم عليه لما مات ، ولما سمع سورة « كهيعض » بكى ، ولما أخبروه عما يقولون فى المسيح ، قال : « والله ما يزيد عيسى على هذا مثل هذا العود » وقال : « إن هذا الذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة »

• وكانت سيرة النبى صلى الله عليه وسلم : أن من آمن بالله وكتبه ورسله من النصارى ، صار من أمته ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وكان له أجران : أجر على إيمانه بالمسيح ، وأجر على إيمانه بمحمد .

ومن لم يؤمن به من الأمم فإن الله أمر بقتاله ، كما قال فى كتابه : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

أَلِكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ^(١) .

• فمن كان لا يؤمن بالله ، بل يسب الله ، ويقول : « إنه ثالث ثلاثة ، وإنه صلب ، ولا يؤمن برسله ، بل يزعم أن الله حُجِلَ ووُلِدَ ، وكان يأكل ، ويشرب ويتغَوَّط ، وينام ، هو الله ، ابن الله ، وأن الله أو أبنه ، حلٌّ فيه ، وتدرعه ، ويحمد ما جاء به محمد خاتم المرسلين ، ويحرف نصوص التوراة والإنجيل .

• فإن في الأناجيل الأربعة من التناقض والاختلاف بين ما أمر الله به وأوجبه - مافيهما ، ولا يدين الحق . ودين الحق : هو الإقرار بما أمر الله به وأوجبه ، من عبادته ، وطاعته ، ولا يحرم ما حرم الله ورسوله ، من الدم والميتة ولحم الخنزير ، الذي مازال حراماً ، من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ما أباحه نبي قط .

بل علماء النصراني يعلمون أنه محرم ، وما يمنع بعضهم من إظهار ذلك إلا الرغبة والرغبة . وبعضهم يمنع العناد والمادة ونحو ذلك .

ولا يؤمنون باليوم الآخر ، لأن عامتهم وإن كانوا يقرون بقيامة الأبدان لكنهم لا يقرون بما أخبر الله به من الأكل والشرب

واللباس والنكاح، والنعيم والمذاب في الجنة والنار، بل غاية ما يقرون به من النعيم السماع والشم .

ومنهم متفلسفة ، ينكرون معاد الأجساد ، وأكثر علمائهم زنادقة ، وهم يضمنون ذلك ، ويسخرون بعوامهم ، لاسيما بالنساء والمترهين منهم ؛ لضعف العقول . فمن هذا حاله فقد أمر الله رسوله بجهاده حتى يدخل في دين الله ، أو يؤدي الجزية - وهذا دين محمد صلى الله عليه وسلم .

• ثم المسيح صلوات الله عليه لم يأمر بجهاد ، لاسيما بجهاد الأمة الحنيفية ، ولا الحواريون بعده .

فيأياها الملك ، كيف تستحل سفك الدماء وسبي الحرير ، وأخذ الأموال بغير حجة من الله ورسوله ؟

[أسرى ... وأسرى]

• ثم أما يعلم الملك : أن بديارنا من النصراني أهل الذمة والأمان مالا يحصى عددهم إلا الله ، ومعاملتنا فيهم معروفة ؛ فكيف يعاملون أسرى المسلمين بهذه المعاملات التي لا يرضى بها ذو مروءة ، ولا ذو دين ؟

لست أقول عن الملك وأهل بيته ، ولا إخوته ؛ فإن أبا العباس =
 شاكر للملك ولأهل بيته كثيراً ، معترف بما فعلوه معه من الخير ،
 وإنما أقول عن عموم الرعية . أليس الأسرى في رعية الملك ! أليست
 جهود المسيح ، وسائر الأنبياء توصى بالبر والإحسان . فأين ذلك ؟
 • ثم إن كثيراً منهم إنما أخذوا غدرآ ، والغدر حرام في جميع
 الملل والشرائع والسياسات .

فكيف تستحلون أن تستولوا على من أخذ غدرآ أفتأمنون مع
 هذا أن يقابلكم المسلمون ببعض هذا ؟ وتكونون مفدورين ؛
 والله ناصرهم ومعينهم ، لاسيما في هذه الأوقات ، والأمة قد امتدت
 للجهاد ، واستعدت للجلاد ، ورغب الصالحون وأولياء الرحمن في
 طاعته ، وقد تولى الثغور الساحلية أمراء ذوو بأس شديد ، وقد
 ظهر بعض أثرهم ، وهم في ازدياد .

[الفدائيون]

• ثم عند المسلمين من الرجال الفداوية ، الذين يقتالون الملوك
 في فرشها ، وعلى أفراسها : من قد بلغ الملك خبرهم قديماً وحديثاً ،
 وفيهم الصالحون ، الذين لا يرد الله دعواتهم ، ولا يخيب طلباتهم ،

الذين يغضب الرب لغضبهم ، ويرضى لرضاهم .

وهؤلاء التتار مع كثرتهم وانتسابهم إلى المسلمين : لما غضب المسلمون عليهم ، حاط بهم من البلاء ما يعظم عن الوصف ، فكيف يحسن أيها الملك بقوم يجاورون المسلمين من أكثر الجهات أن يعاملوهم هذه المعاملة ، التي لا يرضاها عاقل ، لا مسلم ولا معاهد !

هذا ، وأنت تعلم أن المسلمين لا ذنب لهم أصلاً ، بل هم المحمودون على ما فعلوه . فإن الذي أطبقت العقلاء على الإقرار بفضلهم ، هو دينهم - حتى الفلاسفة أجمعوا على أنه لم يطرق العالم دين أفضل من هذا الدين ! فقد قامت البراهين على وجوب متابعتهم .

ثم هذه البلاد ما زالت بأيديهم . الساحل ، بل وقبرص أيضاً ؛ ما أخذت منهم إلا من أقل من المئاة سنة ، وقد وعدهم النبي صلى الله عليه وسلم أنهم لا يزالون ظاهرين إلى يوم القيامة ، فما يؤمن الملك أن هؤلاء الأسرى المظلومين يبلدته ينتقم لهم رب العباد والبلاد ، كما ينتقم لغيرهم ! وما يؤمنه أن تاخذ المسلمين حمية إسلامهم فينالوا فيها ما نالوا من غيرها ، ونحن إذا رأينا من الملك وأصحابه ما يصلح عاملناهم بالحسنى - وإلا فن بنى عليه لينصرنه الله .

وأنت تعلم أن ذلك من أيسر الأمور على المسلمين .

وأنا ما غرضى الساعة إلا مخاطبتكم بالتي هي أحسن ، والمعاونة على النظر في العلم ، واتباع الحق ، وفعل ما يجب . فإن كان عند الملك من يشق بعقله ودينه فليبحث معه عن أصول العلم ، وحقائق الأديان ، ولا يرضى أن يكون من هؤلاء النصارى المقلدين الذين لا يسمعون ولا يعقلون ؛ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا !

• وأصل ذلك أن تستعين بالله ، ونسأله الهداية ، وتقول : اللهم أرني الحق حقا ، وأعني على اتباعه ، وأرني الباطل باطلا ، وأعني على اجتنابه ، ولا تجعله مستتباً عليّ فاتبع الهوى .

وقل : اللهم ربّ جبريل وميكائيل ، وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .

• والكتاب لا يحتمل البسط أكثر من هذا ، لكن أنا ما أريد للملك إلا ما ينفعه في الدنيا والآخرة .

وهما شيثان : أحدهما - له خاصة ، وهو معرفته بالعلم والدين ،

وانكشاف الحق وزوال الشبهة ، وعبادة الله كما أمر ؛ فهذا خير له من ملك الدنيا بحذافيرها ، وهو الذى بُعث به المسيح وعلمه الحواريين .
 الثانى - له وللمسلمين ، وهو مساعدته للأسرى الذين فى بلاده ، وإحسانه إليهم ، وأمر رعيته بالإحسان إليهم ، والمعاونة لنا على خلاصهم ؛ فإن فى الإساءة إليهم دركا على الملك فى دينه ودين الله تعالى ودركا من جهة المسلمين .

وفى المعاونة على خلاصهم حسنة له فى دينه ودين الله تعالى وعند المسلمين - وكان المسيح أعظم الناس توصيةً بذلك .

• ومن العجب كل العجب : أن يأسر النصارى قوماً غدرأ أو غير غدر ، ولم يقاتلهم ، والمسيح يقول : « من لطمك على خدك الأيمن ، فأدير له خدك الأيسر ، ومن أخذ رداك أعطه قيصك » .

وكما كثرت الأسرى عندكم كان أعظم لغضب الله ، وغضب عباده المسلمين ! فكيف يمكن السكوت على أسرى المسلمين فى قبرص ! سيما وعامة هؤلاء الأسرى قوم فقراء ، وضعفاء ، ليس لهم من يسعى فيهم .

وهذا أبو العباس مع أنه من عُبَاد المسلمين ، وله عبادة ، وفقر ،
 (٥ - الرسالة القبرصية)

وفيه مشيخة ، ومع هذا ، فما كاد يحصل له فداؤه إلا بالشدة .

ودين الإسلام يأمرنا أن نعين الفقير ، والضعيف ؛ فالملك أحق أن يساعد على ذلك من وجوه كثيرة - لاسيما والمسيح يوصى بذلك في الإنجيل ، ويأمر بالرحمة العامة ، والخير الشامل كالشمس والمطر . والملك وأصحابه إذا عاونونا على تخليص الأسرى ، والإحسان إليهم ، كان الحظ الأوفر لهم في ذلك في الدنيا والآخرة .

• أما في الآخرة : فإن الله يثيب على ذلك ويأجر عليه ، وهذا مما لا ريب فيه عند العلماء المسيحيين الذين لا يتبعون الهوى ، بل كل من اتقى الله وأنصف علم أنهم أسروا بغير حق ، لاسيما من أخذ غدرآ ، والله تعالى لم يأمر ، ولا المسيح أمر ، ولا أحد من الحواريين ، ولا من اتبع المسيح على دينه ، لا بأسر أهل ملة إبراهيم ولا بقتلهم . وكيف وعامة النصارى يقرون بأن محمداً رسول الأميين ، فكيف يجوز أن يقاتل أهل دين اتبعوا رسوله ؟؟ .

• « فإن قال قائل : هم قاتلونا أول مرة ؟ »

قيل : « هذا باطل ، فيمن غدرتم به ، ومن بدأتموه بالقتال . وأما من بدأكم منهم فهو معذور ، لأن الله تعالى أمره بذلك »

ورسوله ، بل المسيح والحواريون أخذ عليهم المواثيق بذلك .
ولا يستوى من عمل بطاعة الله ورسوله ، ودعا إلى عبادته ودينه
وأقر بجميع الكتب والرسل ، وقال لتكون كلمة الله هي العليا ،
وليكون الدين كله لله - ومن قاتل في هوى نفسه وطاعة شيطانه ،
على خلاف الله ورسوله .

• وما زال في النصرارى من الملوك والقسيسين ، والرهبان والعامة
من له مزية على غيره في المعرفة والدين ، فيعرف بعض الحق ، وينقاد
لكثير منه ، ويعرف من قدر الإسلام وأهله ما يحمله غيره ، فيعاملهم
معاملة تكون نافعة له في الدنيا والآخرة ، ثم في فكاك الأسير .
وثواب العتق من كلام الأنبياء والصديقين ما هو معروف لمن طلبه ،
فهما عمل الملك معهم وجد ثمرته .

• وأما في الدنيا : فإن المسلمين أقدر على المكافأة في الخير والشر
من كل أحد .

ومن حاربوه ، فالويل كل الويل له .

والملك لا بد أن يكون سمع السَّير ، وبلغه أنه مازل في المسلمين
النفر القليل ، منهم من يغلب أضعافا مضاعفة من النصرارى ، وغيرهم ،

فـكـيـف إذا كانوا أضـمـافهم ؟ وقد بلغه الملاحم المشهورة في قديم الدهر
وحديثه .

مثل : أربعين ألفاً يغلبون من النصارى أكثر من أربعائة ألف ،
أكثرهم فارس .

وما زال المرابطون بالثغور مع قلتهم ، واشتغال ملوك الإسلام
عنهم يدخلون بلاد النصارى ، فكيف وقد منَّ الله تعالى على المسلمين
باجتماع كلمتهم ، وكثرة جيوشهم ، وبأس مقدّمهم ، وعلو همهم ،
ورغبتهم فيما يقرب إلى الله تعالى ! واعتقادهم أن الجهاد أفضل الأعمال
المطوعة ، وتصديقهم بما وعدهم نبيهم ، حيث قال : « يعطى الشهيد
ست خصال : يُغفر له بأول قطرة من دمه ، ويرى مقعده في الجنة ،
ويكسى حلة الإيمان ، ويزوج بائنتين وسبعين من الحور العين ، ويوقى
فتنة القبر ، ويؤمن من الفرع الأكبر يوم القيامة .

[كيف كان يحارب المسلمون]

• ثم إن في بلادهم من النصارى أضعاف ما عندكم من المسلمين فإن فيهم من رؤوس النصارى من ليس في البحر مثلهم إلا قليلا .

وأما أسراء المسلمين ، فليس فيهم من يحتاج إليه المسلمون ، ولا من ينتفمون به ، وإنما نسعى في تخليصهم لأجل الله تعالى ؛ رحمة لهم ، وتقرباً إليه يوم يحزى الله المصدقين ، ولا يضيع أجر المحسنين .

• وأبو العباس ، حامل هذا الكتاب ، قد بث محاسن الملك وإخوته عندنا ، واستعطف قلوبنا إليه ؛ فلذلك كاتبت الملك لما بلغتني رغبته في الخير ، وميله إلى العلم والدين ، وأنا من نواب المسيح ، وسائر الأنبياء في مناصحة الملك وأصحابه ، وطلب الخير لهم .

فإن أمة محمد خير أمة أخرجت للناس ، يريدون للخلق خير الدنيا والآخرة ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويدعونهم إلى الله ، ويعينونهم على مصالح دينهم ودنياهم .

وإن كان الملك قد بلغه بعض الأخبار التي فيها طعن على بعضهم ،

أو طعن على دينهم ؛ فإما أن يكون الخبر كاذباً ، أو ما فهم التأويل ، وكيف صورة الحال ؛ وإن كان صادقاً عن بعضهم بنوع من المعاصي ، والفواحش والظلم ؛ فهذا لا بد منه في كل أمة ، بل الذي يوجد في المسلمين من الشر أقل مما في غيرهم بكثير ، والذي فيهم من الخير لا يوجد مثله في غيرهم .

• والمملك ، وكل عاقل يعرف أن أكثر النصارى خارجون عن وصايا المسيح والحواريين .

ورسائل بولص وغيره من القديسين ، وإن كان أكثر ما معهم من النصرانية شرب الخمر ، وأكل الخنزير ، وتعظيم الصليب ، ونواميس مبتدعة ما أنزل الله بها من سلطان ، وأن بعضهم يستحل بعض ما حرّمته الشريعة النصرانية ؛ هذا فيما يقرون به .

وأما مخالفتهم لما لا يقرون به ، فكلمهم داخل في ذلك ، بل قد ثبت عندنا عن الصادق المصدوق رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« أن المسيح عيسى ابن مريم ، ينزل عندنا بالمنارة البيضاء في دمشق واضعاً يده على منكبي مَلَكَين ؛ فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ، ويقتل مسيح الضلالة الأعور الدجال ، الذي يتبعه اليهود ، ويسلط المسلمون على**

اليهود ، حتى يقول الشجر والحجر : يا مسلم ، هذا يهودى ورأى
فأقتله ، وينتقم الله للمسيح ابن مريم ، المسيح الهدى ، من اليهود
ما آذوه وكذبوه لما بُعث إليهم .

وأما ما عندنا فى أمر النصارى ، وما يفعل الله بهم من إدالة^(١)
المسلمين عليهم ، وتسليطه عليهم ؛ فهذا مما لا أخبر به الملك لثلاث
يضيّق صدره ، ولكن الذى أنصحه به : أن كل من أسلف إلى
المسلمين خيراً ، ومال إليهم . كانت عاقبته معهم حسنة ، بحسب
ما فعله من الخير ؛ فإن الله يقول :

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾^(٢) .

• والذي أختتم به الكتاب الوصية بالشيخ أبى العباس ، وبغيره
من الأسرى ، والمساعدة لهم ، والرفق بمن عندهم من أهل القرآن ،
والامتناع من تغيير دين واحد منهم ، وسوف يرى الملك طاقبة
ذلك كله ، ونحن نجزى الملك على ذلك بأضعاف ما فى نفسه .

(١) الإدالة : التظية .

(٢) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

والله يعلم أنى قاصد للملك الخير ؛ لأن الله تعالى أمرنا بذلك ،
 وشرع لنا أن نريد الخير لكل أحد ، ونمطف على خلق الله ،
 وندعوهم إلى الله ، وإلى دينه ، وندفع عنهم شياطين الإنس والجن .

والله المستول : أن يعين الملك على مصلحته ، التى هى عند الله
 المصلحة ، وأن يخير له من الأفعال ما هو خير له عند الله ، ويحتم له
 بخاتمة خير .

والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على أنبيائه المرسلين ؛ ولا سيما
 محمد خاتم النبيين والمرسلين والسلام عليهم أجمعين .

دليل الرّسالة

صفحة	الموضوع
٣	مقدمة الطبعة الثانية . . الدكتور محمد جميل غازي
١١	كلمة المحقق ، بقلم : علي السيد صبيح المدني
١٣	طوفان الدعوات الهدامة يغمور الأرض
١٥	الإسلام في المعترك الصاخب
١٧	المسلمون : - أو خير أمة أخرجت للناس
١٩	ابن تيمية في الميدان
٢٠	التعريف بالإسلام
٢١	العقل النابه ، يرحب بالإسلام
٢٢	(شو) يعترف
٢٤	والسياسي الفرنسي (روش) أيضاً !
٢٤	« ابن تيمية » في « الرسالة القبرصية »
٢٥	« ابن تيمية » و « القاضي الباقلاني »
٢٥	« ابن تيمية » يدعو « سرجوان » إلى التفكير الحر
٢٧	الغد للإسلام

الرسالة

٣٥	قصة الصراع بين التوحيد والشرك
٣٩	المسيح . . . وبنو إسرائيل

صفحة	الموضوع
٤٠	الناس يختلفون في عيسى
٤٢	انحراف النصارى
٤٥	تناقض
٤٦	عبادات مبتدعة
٤٧	مقارنة بين اليهود والنصارى
٥٢	الأمة الوسط
٥٤	شيخ الإسلام يحارب المغول
٦١	أسرى . . . وأسرى
٦٢	الفدائيون
٦٩	كيف كان يحارب المسلمون ؟

